والسياسات الاستعمارية الانكليزية والامبريالية الاميركية بوجه خاص ، ولم « يحللها نظريا » ٠

بالضبط هذا ما أردت : أردت لرؤيتي ان تبقى عالقة في المباشر والعياني (دون ان اهمل بالطبع النظرية العامة) ، ما دمت لم أقبض على « الاعماق الخبيثة » ٠ ذلك ان المادية التاريخية تعلم ان الصلة بين العياني والمباشر من جهة والجوهر من جهة اخرى صلة صحيحة ٠ حتى الزبد العائم على السطح ينبغي ان يفحص قبل ان يرمي (كما يقول لوفيفر) ٠ كما تعلم ان العالم ليس ابيض أسود ، وان التطورات السياسية هي بالاحرى ميول Tendances تلعب بها وتحكمها جملة عوامل قد تدفعها في هذا المنحى او تردها الى ذاك ، وان في السياسة دائما ما هو متحرك وغير متوقع ما دام من الممكن ان يفلت من التحليل هذا العنصر او ذاك ، هذا العامل او ذاك ٠ وتعلم أيضا ، ما دامت تؤكد على « التحليل الملموس لوضع ملموس » ، ان السياسات الاستعمارية (وسياسات الدول الكبرى اجمالا) ليست دوما كلية الوعي ولا كلية القدرة ، وانها تخطىء وتصيب ، تنجح وتخفق ، كما أنها سياسات واقعية تخضع لجملة من القواعد والمؤثرات والمصالح ، وان عملية صنع القرار السياسي في الدول الحديثة عملية معقدة نظرا لضخامة الجسم السياسي في هذه الدول ودوره في صنعه او التأثير عليه ٠

والواقع ان تأمل النقطة التي بدأ منها الغزو الاستيطاني الصهيوني (وعد بلفور) والنقطة التي وصلت اليها سيرورة الانتداب (دولة اسرائيل) ، تدل بوضوح كيف يمكن للضغوط والصراعات ونسب القوى ان تفعل بالواقع وتدفعه بعيدا عن السياسة التي قيل أنها « نهائية » و « مرسومة سلفا » ، ذلك ان حجم وعد بلفور جد بسيط وجد صغير اذا قيس بدولة اسرائيل ٠ فلماذا انزلقت بريطانيا (وهنا ، نحن نحاجج افتراضا فقط) الى مواقع اخرى تضخمت فيها مكاسب الحركة الصهيونية هذا التضخم الكبير ؟! ترى لو ان ضغوط وقوى الحركة الصهيونية كانت أضعف فأضعف ، اما كانت مكاسب البيشوف اقل فأقل ؟! او لو ان ضغوط وقوى الحركة الوطنية الفلسطينية والعربية كانت اكثر فاعلية ، اما كان باستطاعتها ان تضع نهاية اخرى لوعد بلفوروتحوله الى قصاصة ورق ، وتفعل باليهود والانكليز ما فعل الاتراك باليونان والقوى الاستعمارية الفرنسية ـ الانكليزية بعد الحرب العالمية الاولى ؟! ولكن ، اين وعي اتاتورك من وعي أمين الحسيني ، اين وعي الحركة القومية التركية من وعي الحركة القومية العربية ! يكفي ان نطلع على النقد الذي وجهه عدد من « مفكري » الحركة القومية العربية وقادتها في ذلك الحين الى اتجاهات اتاتورك الديمقراطية حتى نقبض على أسباب الهزيمة العربية الطويلة ٠